مجلة رؤى تاريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية
ISSN:2716-8131

المجلد الأول العدد الثاني
أكتوبر 2020

منهج الكتابة التاريخية عند المؤرخ الشيخ عبد الرحمان الجيلالي

The method of historical writing for the historian Sheikh Abdul Rahman Al-Jilali

د. الحاج صادوق

جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله، sadokelhadj@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2020 /08/08 تاريخ القبول: 2020 /09/08 تاريخ النشر: 2021 /01/05

الملخص:

اتبع المؤرخ عبد الرحمان الجيلالي منهجًا علميًا واضحًا وعرضًا تاريخيًا أوضح من منهج سابقيه، لا سيما مبارك الميلي، وذلك راجع لتقدم هذا الأخير تاريخيا عن الأول، وعدم وجود ركائز يرتكز عليها في ذلك الحين، فحاول الشيخ عبد الرحمان الجيلالي أن يكون موضوعيا في عرض الكثير من الأحداث التاريخية

كلمات مفتاحية: عبد الرحمان الجيلالي.، منهجًا علميًا.، الركائز.، الموضوعية.، الأحداث التاريخية.

Abstract

The historian Abd al-Rahman al-Jilali followed a clear scientific approach and a historical presentation that was clearer than that of his predecessors, especially Mubarak al-Mili, due to the latter's historical progression from the first, and the absence of pillars on which it was based at that time. Sheikh Abd al-Rahman al-Jilali tried to be objective in presenting a lot of Historical events,

Keywords: Abdul Rahman Al-Jilali., Scientific method. the pillars. objectivity. historical events. relativity.

مقدمـــة

يعتبر الشيخ عبد الرحمن الجيلالي من الرعيل الأول الذين أرّخوا للجزائر من بداية عصورها، ويعتبر كتابه " تاريخ الجزائر العام " الذي صدر سنة 1953قفزة نوعية في الكتابة التاريخية بأقلام أبناء الجزائر، وهو طفرة نوعية وتتمة لما بدأه الشيخ مبارك الميلي والأستاذ أحمد توفيق المدني.

لقد كان الشيخ الجيلالي واحداً من العلماء الأجلاء نذر حياته للبحث والتنقيب في مآثر شعبه الجزائري والعربي، وقضاها مُدافعاً عن اللغة العربية، والدين الإسلامي الحنيف الوسطي المعتدل، داعياً إلى الحوار، والتسامح، ونبذ التطرف والغلو، وهو واحد من المصلحين المجددين ممن أسهموا في إثراء الحركة العلمية، والفكرية ببلادهم، واستنهضوا الهمم إلى النهضة والتحديث، وحرصوا على تقديم صورة صادقة وموضوعية عن تاريخ بلادهم بفضل إحاطته الشاملة، وموسوعيته، وشموليته، وبفضل تفقهه في الدين أضحى عبد الرحمن الجيلالي أحد أهم المراجع الدينية في الجزائر، فقد جمع الشيخ بين العلوم الدينية، والشرعية، والتاريخ، والأدب، عُرف فقيهاً مُلماً بالتاريخ، والأدب، والفكر الإسلامي، قدم دراسات رصينة، ومعمقة عن حركة المجتمع الجزائري، والعربي الاجتماعية والسياسية. وعنه قال العلاّمة الشيخ عبد الرحمن شيبان؛ إنه "شخصية متعددة الفضائل والكمالات في شتى المجالات، فهو من الناحية الثقافية: أديب، مؤرخ، وفقيه، وهو من الناحية الاجتماعية: معلم، وواعظ مرشد، وهو من الناحية الدينية: متق لله تعالى، عامل بكتابه وسنة رسوله، صلى الله عليه وسلم، نصوح للأمة، صالح مصلح، يؤيد الحق...، ومن الناحية السلوكية، فهو لطيف المعشر، يألف ويؤلف، يقدر أهل العلم والفضل".

ويرى الدكتور عمّار طالبي؛ أن عبد الرحمن الجيلالي "يمثل جيلاً كاملاً، وشاهداً على عصر تاريخ الجزائر الحديث، انتفعت الجزائر برمتها من فتاويه، وهو أحد المحدثين والفقهاء الذين يصعب مجاراتهم علمياً، وأول من ألف في التاريخ الجزائري بعد أحمد توفيق المدني، ومبارك الميلي، ويُعتبر ممن عاصروا سلاسل من الأحداث التاريخية التي نفقد فيها اليوم كثيراً من الحقائق العلمية". وتتجلى أهمية الشيخ الجيلالي في حركة التفكير التاريخي بالجزائر، من حيث إنه أحدث جملة من التحولات بإسهاماته، وقد شكل إنتاجه نقلة لها وزنها، فبعد أن كان التاريخ الجزائري بيد المستعمر الفرنسي يزور، ويحرف ويطمس، ويشوه نهض العلاّمة الجيلالي بمهمة جليلة لملم من خلالها تراث بلاده من خلال كتابه الشهير: "تاريخ الجزائر العام"، وقدم دراسة هامة، وموسوعة لا يمكن لأي مهتم، وباحث في التاريخ الجزائري أن يتجاوزها، فهي درة فريدة رفدت ذاكرة التاريخ الجزائري على مر العصور والأزمنة الغابرة "إنه قطب من الأقطاب، وعالم من الأعلام، وركيزة من ركائز العلم في التاريخ والثقافة والجهاد والانضباط، ملتزم في أخلاقه، وعلمه، ووطنيته وقضايا أمته، كذلك في مواعيده، هو قرن من العطاء درس على يد أعلام الجزائر العاصمة، وواصل على درب أساتذته في التعليم،

والتربية، والكتابة والتأليف، وهو واحد من الذين كونوا جيلاً من العلماء والمجاهدين" وظل معطاء لوطنه الجزائر، وأمته العربية الإسلامية إلى آخر أيام حياته.

1- الشيخ عبد الرحمان الجيلالي سيرة ومسيرة

ولد عبد الرحمن الجيلالي بحي بولوغين بالجزائر العاصمة سنة1908م، ويذكر الدكتور الهاشمي العربي أن نسبه يعود إلى قبيلة زوّارة من منطقة القبائل الكبرى، وأصله من قرية سيدي علي موسى التي تنسب إلى ولي صالح من مدينة معاتقة. ويعود نسبه إلى آل الشجرة الموسوية القادرية وفروعها الأشراف القاطنين بسهول متيجة، وتصل سلالتهم إلى عبد القادر الجيلالي سليل الحسن سبط النبي وبن على بن أبى طالب وفاطمة الزهراء بنت الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، ويوجد ضريح الجد عبد القادر الجيلالي المتوفى سنة 1077 ببغداد بالعراق.[1]

حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة، ودرس على عدة شيوخ في المساجد والزوايا، وتلقى فيها مبادئ اللغة العربية، وعلم الفقه، وعلوم الشريعة، وعلم الكلام وقد تتلمذ عبد الرحمن الجيلالي على عدد من كبار العلماء الجزائريين الذين يعدون من وجوه النهضة الجزائرية في ذلك الزمن،[2] فقد كانت مدينة الجزائر العريقة "في بدايات القرن الماضي فضاءً خصباً لنشاط ثقافي وديني غني قاده أعلام من الفقهاء والأدباء والكتاب، من أمثال: الشيخ محمد السعيد بن زكري الزواوي المتوفى سنة:1914م، الذي كان مدرساً بالجامع الأعظم، وإماماً بجامع سيدي رمضان بالقصبة ومفتياً شهيراً على المذهب المالكي، وكذلك الشيخ البشير الإبراهيمي الذي كان يشرف على تسيير الحركة التعليمية بالمدارس الحرة التابعة لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، والتي كان مقرها بنادي الترقي بساحة الشهداء بالعاصمة، والذي كان ملتقى للنخبة المثقفة حيث كان يحتضن أمسيات ثقافية كان ينشطها أعلام من أمثال: الطيب العقبي، والشيخ العربي التبسي، وغيرهما من المشايخ".[3] ومن أبرز الأساتذة الذين درّسوه العلاّمة الشيخ عبد الحليم بن سماية؛ الذي كان أحد كبار العلماء في ذلك الزمن، وترك عدداً من الآثار الهامة من بينها كتاب: "فلسفة الإسلام" وكتاب: "اهتزاز الأطوارّ، وكتاب: "الكنز المدفون والسر المكنون"، والشيخ العلاّمة أبو القاسم الحفناوي؛ صاحب الكتاب الشهير الموسوم ب:"تعريف الخلف برجال السلف"، والشيخ المولود الزريبي؛ المصلح، والمناضل الثائر، والعلاّمة الفذ الدكتور محمد بن أبي شنب؛ شيخ المحققين الجزائريين في ذلك الزمن، والمترجم البارز، وعضو مجمع اللغة العربية بدمشق، والذي يعتبره الكثير من الدارسين بأنه أول من حصل على شهادة الدكتوراه في الوطن العربي، والشيخ محمد السعيد بن زكري

الزواوي، الذي كان يعمل إماماً بجامع سيدي رمضان بحي القصبة، كما كان يتولى التدريس بالمسجد الأعظم.[4]

ويعود نسب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي إلى آل الشجرة الموسوية القادرية، ولا ريب في أن تتلمذه على عدد من العلماء الأفذاذ قد أثر في شخصيته وتكوينه، إضافة إلى عصاميته، واعتماده على ذاته، واجتهاده الشخصي، وبعد انتهاء تعليمه درّس الشيخ الجيلالي في عدة مدارس من بينها: "مدرسة الشبيبة الإسلامية" التي كان يديرها أمير الشعراء الجزائريين؛ محمد العيد آل خليفة، ومارس الخطابة، والإمامة بعدة مساجد، مثل: "الجامع الكبير"، و"الجامع الجديد"، و«جامع سيدي رمضان".[5]

وبعد الاستقلال عين أستاذاً باحثاً بالمتحف الوطني للآثار بالجزائر ابتداءً من سنة:1956م،وعين سنة:1970م أستاذاً للفقه المالكي بمعهد تخريج الأئمة بولاية البليدة، كما تولى تدريس مادة: "مصطلح الحديث" بجامعة الجزائر المركزية سنة:1983م، ونظراً لتعدد اهتماماته، وثقافته الموسوعية، وفكره العميق، فقد عين في الكثير من اللجان العلمية التاريخية والدينية، كما كان عضواً بالمجلس الإسلامي الأعلى، وكان من أبرز المساهمين في لجنة الفتوى التي كان يشرف عليها العلاّمة أحمد حماني، إضافة إلى عضويته في الديوان الوطني لحقوق التأليف، والعديد من اللجان الأخرى.[6]

حصل الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عبر مسيرته على العديد من الجوائز والتكريميات، من بينها: جائزة الجزائر الأدبية الكبرى سنة:1960م، كما كرمه رئيس الجمهورية الجزائرية الأسبق الشاذلي بن جديد سنة:1987م، ومنحه شهادة اعتراف وتقدير لجهوده العلمية الكبيرة، وخدماته الجليلة التي قدمها للثقافة العربية والإسلامية. وفي سنة:2003م، وبتوصية من رئيس الجمهورية السيد عبد العزيز بوتفليقة، كرّمته جامعة الجزائر، ومنحته شهادة دكتوراه فخرية، تقديراً لإسهاماته الكبيرة، وقد سلمها له الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، وبمناسبة بلوغه قرن من العمر سنة:2008م، كرمته مؤسسة الشروق في احتفالية ضخمة حضرها العديد من كبار العلماء الجزائريين.[7]

2- منهج الكتابة التاريخية عند الشيخ عبد الرحمان الجيلالي

فعندما يتحدث المرء عن عبد الرحمن الجيلالي المؤرخ يتبادر إلى الذهن كتابه: **"تاريخ الجزائر العام"** الذي هو عبارة عن موسوعة ضخمة، ذلك الكتاب الذي يعد من أهم ما كُتب عن تاريخ الجزائر منذ العصور الغابرة، وصولاً إلى ما بعد العهد العثماني، وقد تولى الشيخ توسعته، وتنقيحه من طبعة إلى أخرى، وقد طبع أكثر من

عشر مرات، وقد صدر لأول مرة سنة:1953م، في جزء واحد، ثم صدر بعدها في جزأين، ثم في أربعة مجلدات ضخمة، وصدر مؤخراً في خمسة أجزاء.[8]

أدرك الشيخ عبد الرحمان الجيلالي بأن تاريخ الجزائر لا يزال مجهولا، إذ أنه لم يدرس دراسة موضوعيه ولا شامله لكل العصور من طرف الميلي والمدني، فالأول من مجموع 359 صفحه في الجزء الأول خصص 313صفحه للحقبة ما قبل الإسلامية أي ما يعادل 8/7 من الجزء، أما المدني فبحث في الحقب العربية في كتاب" قرطا جنه في أربعه عصور، ضمن 13 صفحة فقط أما كتاب الجزائر فكان جد مختصر لاهتمامه بالفترة المعاصرة فقط[9]

ولأنه باشر التعليم في الجمعيات والمدارس فقد وجد أن تدريس مادة التاريخ ممنوع ومحرم فيها إلا ما كان يدرس خفية من طرف المعلمين، كما رأى بأن هذه المادة مهملة في كتب التاريخ، مما جعله يطرح الأسئلة الآتية: ذكرها: أين كتب الجزائر؟ كيف حالها؟ وكيف حال علماء الجزائر وأعيانها ومثقفيها؟ الأمر الذي دفعه لإيجاد كتاب لتلاميذ الابتدائية يقدم في جزء واحد، إلا أن المشروع تحول إلى مشروع ذو مستوى عال.[10]

شرع في تأليف الكتاب عند نشوب الحرب العالمية الثانية 1939 مستغلا ظروف الحرب وانزواء الناس أنداك واشتغالهم بشؤون الحرب، التي كان يعتقد أن من شانها أن تحدث تغييرا في الحياة الاجتماعية وبالتالي رغب في تعريف الناس تاريخ الجزائر في الحاضر والغابر تعريفا كافيا شافيا لاسيما أن تلك الفترة تميزت ببروز بعض النزعات البربرية الملفتة للانتباه والتي استغلها البعض لتأكيد أن العرب ما هم إلا استعمار مثلهم في ذلك مثل أي استعمار آخر.[11]

لاسيما أن تلك الفترة تميزت ببروز بعض النزعات البربرية الملفتة للانتباه والتي استغلها البعض لتأكيد أن العرب ما هم إلا استعمار مثلهم في ذلك مثل أي استعمار آخر.[12]

لقد اتبع الشيخ عبد الرحمان الجيلالي منهجا علميا واضحا وعرضا تاريخيا أوضح من منهج سابقيه، لا سيما الميلي، وذلك راجع لتقدم هذا الأخير تاريخيا عن الأول، وعدم وجود ركائز يرتكز عليها في ذلك الحين، فحاول عبد الرحمان الجيلالي أن يكون موضوعيا في عرض الكثير من الأحداث التاريخية، وان كانت قضية الموضوعية المطلقة بالنسبة للمؤرخ قضية نسبيه بحكم ارتباطه بأمته، وانفعاله مع قضاياها

نجد كتبه خالية من الانفعالات العاطفية، كما استشهد بالنصوص الكثيرة المختلفة التي تدعم بحثه، وان لم تكن تاريخيه بحته، بالإضافة إلى إثبات جداول تاريخيه تقيد الحوادث التاريخية الهامة التي وقعت على عهد

الدولة التي أرخ لها في كل فصل من فصول كتابه الرئيسية، كما عمد إلى إثبات فهارس تاريخيه تتصل بالدول الأخرى

بالإضافة إلى التبويب المحكم، وترتيب الأدوار التاريخية، وذكر جداول الدول وتراجم بعض المشاهير، كذلك استخدامه للمخطوطات الأمر الذي يدل على مدى الصرامة والدقة الممنهجة للشيخ عبد الرحمان الجيلالي.[13]

هذا الأمر الذي دفع البعض للقول ..."إن تكوين الجيلالي صلب وذو منهج موثق "، وقد استخدم مصادر متنوعة ومختلفة باختلاف العصور، ففيما يخص فتره ما قبل الإسلام اعتمد أكثر على الكتب الأجنبية بما فيها اللاتينية واليونانية المترجمة والفرنسية، في حين اعتمد على المصادر العربية لفترة ما بعد الفتح الإسلامي، أما في دور ما بعد الفتح فكان الاعتماد على المصادر العربية والغير العربية

ومع ذلك لا يخلو عمل من عيب بما فيها كتاب الجيلالي، فرغم المحاسن التي اتصف به منهجه إلا انه يحوي نقائص من بينها :انه لم يعنى بالخرائط الجغرافية التي تمثل العنصر المكاني للحوادث إلا قليلا جدا، كما أهمل ذكر بعض المصادر التي استقى منها معلوماته5 ، وأخيرا اعتماده أكثر على المصادر العربية التي بلغت حوالب ستين مصدرا بمقابل عشر مصادر باللغة الفرنسية، وهذا لعدم تمكنه من الفرنسية، وهو بذلك يلتقي مع الميلي في هذه النقطة[14]

وقد حرص الشيخ عبد الرحمن الجيلالي في تأليفه لهذا السفر على تقديمه بأسلوب سهل، ومبسط، ومفيد، حتى يستفيد منه الباحثون المتخصصون، وعامة القراء، وعند حديثه عن منهجه في الكتاب تظهر لنا أخلاق الشيخ الفاضلة، وتواضعه الجم، حيث يقول: "نزهته جهد المستطاع عن كل تعقيد وإبهام، سالكاً فيه مسلكاً سهلاً بسيطاً لا يحتاج فيه المتعلم الناشئ، ولا القارئ العادي إلى كدح ذهن، ولا جهد فكر، ولا إعنات روية. ولا أدعي الفضل في ذلك، حيث أنني لم أجيء فيه بشيء جديد أو مبتكر حديث، وإنما هو جمع وتدوين لما كنت سطرته لنفسي وجمعته من تاريخ وطني العزيز المشتت هنا وهناك! مع تنسيق نصوصه الوثيقة ووضعها حسب نظامها الطبيعي من فجر التاريخ إلى الآن. وتعمدت الإيجاز في القسم الأول الخاص بما قبل الإسلام لعدم تعلق الغرض الشديد به اليوم، وأسهبت مشبعاً البحث في العصور الإسلامية إسهاباً يحمل الشاب المسلم الجزائري على احترام بلاده، وتمجيد تاريخه اللامع العظيم، والثقة بمستقبله الزاهر النير، مع نفخ روح القومية فيه،[15] وإعداده لوصل حاضره بماضيه، حتى تتكامل فيه أركان الحياة الأربعة: المحافظة على شخصيته وميزته، وتقديس أسلافه الأمجاد، والتمسك بدينه، والعمل على الإشادة بوطنه...، وأعتقد أنني بذلك خلصت تاريخنا

الماجد من أن يبقى مكتوباً عرضاً ضمن تاريخ الأمم والشعوب، والأقطار المستعمرة، أو أن يكون كفصل ملحق بكتاب مبعثر مشوه العرض، أرجو ذلك إن شاء الله"[16]

إن من يتأمل كتاب الشيخ عبد الرحمن الجيلالي يدرك بأن الرجل قد اعتزل الناس، وقضى حياته بين الكتب والأوراق، باحثاً ومُنقباً، وبفضل هذه الموسوعة الرائدة، كما رأى الدكتور أبو عمران الشيخ؛ أنقذنا العلاّمة عبد الرحمن الجيلالي من السموم التي بثها بعض المستشرقين المجحفين في كتاباتهم التي غزت الجامعات، والمعاهد، والمكتبات الجزائرية والعربية.

وكانت طريقة الشيخ الجيلالي في كتابة التاريخ تعتمد على سرد الأحداث حسب تسلسلها التاريخي، وذكر مشاهير الجزائر في ذلك العصر، ووضع جدول تاريخي يلخص ما ورد في الكتاب

كما ذكر الشيخ الجيلالي في إحدى المرات بأنه قد شرع في تأليف كتابه: "تاريخ الجزائر العام" منذ شبابه، حينما كان يُدرس بمدرسة الشبيبة الإسلامية، حيث إنه كان يُلفي صعوبة كبيرة في تدريس تاريخ الجزائر، والكتاب المؤلف والمتوفر آنذاك هو كتاب العلاّمة التونسي عثمان الكعاك الموسوم ب: "موجز التاريخ العام للجزائر من العصر الحجري إلى الاحتلال الفرنسي"، ومنذ ذلك الحين عزم على تأليف كتاب: "تاريخ الجزائر العام"، مُستعيناً بالمخطوطات التي كانت عنده، وفي بعض المساجد، إضافة إلى كراريسه التي يحضر فيها الدروس لطلبته.[17]

3- ثناء العلماء على منهجه

وقد رأى العلاّمة الجزائري الدكتور عبد الملك مرتاض في كتابه: "نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر1925-1954م" أن منهج الشيخ عبد الرحمن الجيلالي أحد أهم المناهج التي أسهمت في بروز النهضة التاريخية في الجزائر، حيث يقول الدكتور عبد الملك مرتاض عن منهج الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في كتاب "تاريخ الجزائر العام": "تقرأ تاريخ الجيلالي فتجدك أمام مؤرخ غني، يريد أن يُطلعك على كل شيء، ويريد أن يجعلك تلم بما ألم، وتفيد من كل ما قرأ، أو درس من كتب تاريخية، وغير تاريخية، فالتاريخ للأمة الجزائرية وحدها، ولكن الجيلالي لم يقنع بهذا، فمضى يتحدث لك عن الأمة العربية بوجه عام، وأنها أعقل الأمم وأرقاها تفكيراً[18]

إن هذا التاريخ ذو شأن أي شأن في النهضة الثقافية الجزائرية المعاصرة. فقد أنفق الجيلالي من الوقت، وعانى من الجهد، في تأليف هذا الكتاب، ما تشهد به مادته الخصبة، ومعارفه الواسعة ومنهجه البسيط. فهو

كتاب هام لا غنى عنه لأحد يريد أن يلم بتاريخ الجزائر خلال أطوار التاريخ المتباعدة التي عالجها، ونحسب مخلصين، أن الجيلالي قد أدى بهذا الكتاب لنهضتنا الثقافية المعاصرة في الجزائر صنيعاً عظيماً"[19]

وقد قدم الدكتور عبد الملك مرتاض دراسة وافية عن هذا الكتاب ومنهجه وقسم محاسنه إلى خمسة محاسن رئيسة، حيث يقول عنه: "وأول ما تبدى لنا من محاسن هذا الكتاب، أنه يعد موسوعة ضخمة للمعارف التاريخية، فهو خليق بأن يفيد القارئ إفادة عميقة، إذ كان عبارة عن عرض مفصل طويل لسائر الأحداث الهامة التي كان لها صلة مباشرة أو غير مباشرة، بالجزائر منذ العصور البعيدة الممعنة في القدم إلى أيام الأتراك. فهو تاريخ غزيرة مادته، غنية معارفه، وواسعة مسالكه. فالذي يقرأه لا يخرج منه بالمامة شاملة لتاريخ الجزائر فحسب، ولكنه يخرج منه ملماً بكل ما يتصل بذلك من قريب أو بعيد، فقد يستطيع قارئه أن يلم بطرف صالح من تاريخ الإسلام، وبشيء كثير من أحوال الدول التي اعتورت أرض الجزائر خلال العصور التاريخية المتباعدة، وبمقدار هام يتصل بالدول التي كانت تجاور الجزائر، أو تتصل بها على نحو أو على آخر كدول المغرب وتونس، ومصر.[20]

ثانياً: إن الجيلالي لم يفته أن يثبت جداول تاريخية تقيد الحوادث التاريخية الهامة التي وقعت على عهد الدولة التي يؤرخ لها في كل فصل من فصول كتابه الرئيسية، ولم يعن بالحوادث التاريخية في هذه الجداول فحسب، وإنما عمد إلى إثبات فهارس تاريخية تتصل بالدول الأخرى كالدولة العباسية مثلاً...

وتسألني عن فائدة كل هذا، فلا أملك إلا أن أسارع إلى القول، بأن فائدة هذا عظيمة جداً، لأن القارئ يستطيع أن يجني ثمرة الكتاب التاريخية من أقرب طريق، وأيسر سبيل...[21]

ومن محاسن المنهج التاريخي عند الشيخ عبد الرحمان الجيلالي ابتعاده من الانفعالات العاطفية، لأن المؤرخ ينبغي له أن يتحلى بصفة الهدوء والتروي في معالجة الوقائع التاريخية، وتحليلها تحليلاً موضوعياً هادئاً رزيناً، فإن رأيت مؤرخاً مندفعاً اندفاعاً عاطفياً، كثير النعوت للأشياء، فاعلم أنه شاعر بعيد عن علم التاريخ...

ومن محاسن منهجه أيضًا استشهاده بالنصوص الكثيرة الطويلة المختلفة التي تؤيد مذهبه، أو تدعم حجته في تقرير رأي، أو إصدار حكم، ولم تك هذه النصوص تاريخية كلها، بل إن المؤرخ عول على النصوص الأدبية كثيراً. وقد عول على النصوص الشعرية بوجه خاص. وهذه طريقة ناجحة في تعجيل وقائع التاريخ، لأن المؤرخ البارع ينبغي له أن لا يحجم عن الاستعانة بالنصوص الأدبية في تفسير حادثة، أو للتدليل على أمر ذي بال".[22]

وكثيراً ما كان الشيخ الجيلالي يربط تاريخ الجزائر بتاريخ الوطن العربي، ويربط المدن الجزائرية بالمدن العربية، بغرض توطيد الصلات بين أقطار الوطن العربي، وتسليط الضوء على التراث المشترك، والعلاقات التليدة، وعندما طُلب منه الكتابة عن مدينة تلمسان الجزائرية سنة:1975م في مجلة: "الأصالة"، في العدد الخاص الذي

خُصص لتاريخ مدينة تلمسان وحضارتها، لم يختر أي موضوع سوى موضوع علاقة تلمسان بالقدس العربي الشريف، فأسهم في ذلك العدد بمقال موسوم ب:"تلمسان والقدس الشريف"، ومما قاله الشيخ الجيلالي في ذلك المقال: "أنا لا أكاد أرتاح لذكر مدينة الجدار تلمسان، إلا بذكر اسمها مقروناً باسم مدينة القدس المباركة من تلك الأرض المقدسة أرض فلسطين؛ بل ولا أجد في نفسي اطمئناناً، ولا أشعر برضى من التاريخ–وأنا أكتب كلمتي المختصرة هذه عن تلمسان والحرب اليوم قائمة ما بين العرب عرب فلسطين، وإسرائيل فلا يطيب لي ذلك ما لم أذكر بالروابط التاريخية العديدة التي تربط بين تلمسان والقدس فهي تمتد إلى زمن بعيد ضاربة في أعماق التاريخ القديم والحديث أيضاً،[23] وهي تزيد على رابطة الجنس والدين، واللغة بما تأصل هناك من روابط وصلات أخرى أدبية، واجتماعية، وسياسية، وما إلى ذلك من أعمال كثيرة هي من قبيل البر، والخير، والإحسان. إن تضامن الجزائر مع فلسطين ليس هو وليد الساعة، ولا هو بنتيجة ظروف خاصة، وإنما هو متأصل في القدم له جذوره العميقة في الأزل يجمعه بها شعور إنساني عام فوق ما هنالك مما يجتمعان عليه من لحمة الدم واللغة والتاريخ، ومنها تلك الروابط الوثيقة التي كان أن ربطها بين البلدين رواد المغرب العربي، ونزلوا خير منزل بتلك الديار المقدسة أرض فلسطين العربية الشهيدة..."". وقد ختم الشيخ الجيلالي هذا المقال بقوله: "أنا أقترح اليوم ربط مدينة تلمسان بمدينة القدس الشريف تثبيتاً وثيقاً لما بينهما من علاقة الصداقة والود والإحسان حتى تستمر هذه العلاقة متصلة فتضل منتظمة لا تنفصم ولا تزول بحول الله".[24]

يقول عنه الدكتور سيف الإسلام بوفلاقة: "كما كتب العديد من الأبحاث الهامة في مجلة: "الثقافة" التي تصدر عن وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، من بينها بحثه الهام الذي كتبه عن العلاّمة الشيخ مبارك الميلي بمناسبة مرور أربعة عقود على وفاته سنة 1984م، فتحدث الشيخ الجيلالي عنه بإسهاب مُعددًا خصاله، ومناقبه، ومُشيداً بجهوده، وخدماته الجليلة، وجميع ما ذكره الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عن العلاّمة مبارك الميلي ينطبق عليه انطباقاً تاماً، حيث إنه يتحدث عنه، وكأنه يصف نفسه"، فيقول: "لقد وُفق حقاً وصدقاً فيما اختاره هذا الرجل العظيم لخدمة أمته، فإن أهم ناحية يخدم بها العالم العامل أمته هي تطهير المعتقد مما لصق به من الضلالات والخزعبلات وتجلية عقيدة التوحيد، وإرجاع قوة الإسلام بنفي العقائد التي هي أجنبية عنه، والتي أدخلت الضعف في نفوس أهله حتى أصبحوا بسببها في أسوء حال من حيث أوضاعهم الاجتماعية وحياتهم السياسية والاقتصادية، فللعقيدة الدينية الدور الأهم في كل ما قام به هذا الشعب الجزائري من أعمال في مختلف الميادين خلال التاريخ من يوم اعتناقه للإسلام، وذلك لأن للعقيدة الدينية دخلاً كبيراً في جميع الحركات والسكنات عند المسلمين قاطبة...، ولقد كان لعلم التاريخ فضل علينا عظيم في تعرفنا إلى هذه

الشخصية البارزة العظيمة، وقد كان طيب الله ثراه صبوراً دؤوباً على البحث مغال في التحقيق والتدقيق مع مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص، وكانت له نظرة صائبة في استجلاء الغوامض، وحكم صادق في أسباب الحوادث ونتائجها، ومهارة في الترتيب والتبويب مع حسن سبك يجعل التاريخ كالسلسلة المفرغة".[25]

خاتمـــة

لقد احتل الشيخ عبد الرحمن الجيلالي مكانة علمية راقية، فالمتطلع لمسيرته يقف إجلالاً واحتراماً لهذه الشخصية العلمية المتميزة، بأعمالها، وإبداعاتها الكثيرة، والمتنوعة في شتى حقول المعرفة، وإذا كنا نرغب في جمع خصال الشيخ العلمية والأخلاقية فإننا نقول لقد كان الشيخ عبد الرحمن الجيلالي رجلاً لطيف المعشر، واسع العلم، غزير الإنتاج، سلس الكلام، هادئ المعاملة، دقيق الملاحظة، عزيز النفس، وبرحيل هذا العلامة فإن الجزائر، والأمة العربية والإسلامية تكون قد فقدت رجلاً مخلصاً وطنياً متمسكاً بثوابت وطنه، وأمته. سيظل نضاله، وعطاؤه، وفكره المستنير ساكناً فينا ما حيينا، وسيبقى خالداً بأعماله، وإنجازاته، وكتاباته التاريخية، والفقهية، ومواقفه الصلبة، ومنهجه البسيط، وستتخذه الأجيال الصاعدة قدوة لها في الدفاع عن قيم البلاد ووحدتها، وفي تأصيل البحث التاريخي الوطني والدولي. ولعل خير ما نختتم به هذه الورقة البحثية فقرة كتبها العلامة الشيخ عبد الرحمن الجيلالي عن الشيخ المكي بن عزوز، وهو يعدد خصاله، ويشيد بجهوده، ويدعو إلى الوفاء لذكراه، وهي عبارة تنطبق عليه اليوم، حيث يقول: "إن هذا الرجل أحيا هذا القطر بعلمه فمن الواجب على القطر أن يحيي ذكره، ويخلده بعد موته".

نجد كتاباته خالية من الانفعالات العاطفية، واستشهاده بالنصوص الكثيرة المختلفة التي تدعم بحثه، وان لم تكن تاريخيه بحته، بالإضافة إلى إثبات جداول تاريخيه تقيد الحوادث التاريخية الهامة التي وقعت على عهد الدولة التي أرخ لها في كل كتاباته التاريخية، كما عمد إلى إثبات في معظم مؤلفاته فهارس تاريخيه تتصل بالدول الأخرى بالإضافة إلى التبويب المحكم، وترتيب الأدوار التاريخية، وذكر جداول الدول وتراجم بعض المشاهير، كذلك استخدامه للمخطوطات الأمر الذي يدل على مدى الصرامة والدقة الممنهجة للشيخ عبد الرحمان الجيلالي.

هذا الأمر الذي دفع البعض للقول "...إن تكوين الشيخ عبد الرحمان الجيلالي صلب وذو منهج موثق"، وقد استخدم مصادر متنوعة ومختلفة باختلاف العصور، ففيما يخص فتره ما قبل الإسلام اعتمد أكثر على الكتب الأجنبية بما فيها اللاتينية واليونانية المترجمة والفرنسية، في حين اعتمد على المصادر العربية لفترة ما بعد الفتح الإسلامي، أما في دور ما بعد الفتح فكان الاعتماد على المصادر العربية والغير العربية.

ان الشيء الملاحظ في الكتابات التاريخية للشيخ عبد الرحمان الجيلالي أنه لا يعتمد كثيرًا على الخرائط الجغرافية الا قليلاً، كما أنه في أغلب كتاباته التاريخية يعتمد على المصادر العربية وهذا لعدم تمكنه جيدًا من اللغات الأجنبية.

وقد كان المؤرخ الجيلالي متمكنا من اللغة العربية، مثل تمكن الميلي والمدني، وامتاز أسلوبه في الكتابة بالسلاسة والسهولة، والوضوح، وعدم الإكثار من المحسنات البديعية والتنميق، مما جعله أقرب إلى الأسلوب العلمي منه إلى الأدبي، وهو الأسلوب المناسب في الكتابة التاريخية.

قد كان الشيخ عبد الرحمان الجيلالي مؤسسة قائمة في رجل، قدم خدمات جليلة، وأعمالاً مهمة، تعجز عن القيام بها فرق بحث في مؤسسات كبيرة، شملت نشاطاته مختلف الميادين الأدبية، والتاريخية، والفنية، والدينية، والإعلامية، وقد أنتج كتباً، وبحوثاً أفادت، وستظل تفيد أجيالاً، لشموليتها، وعدم اقتصارها على فترات، وعصور محددة.

وفي الأخير أقول، أنه واجب علينا نحن كأساتذة وطلبة باحثين أن نذكر هذا المؤرخ الكبير ونقتدي بكتبه ومنهجه التاريخي، ونخلده بعد موته امتنانًا له ولما قدمه من معلومات تاريخية كان هو السباق اليها في عصره خاصة بما تعلق بتاريخ الجزائر عبر العصور محاولاً ابراز مكانة الجزائر العالمية خاصة في الجانب التاريخي والدور الريادي لها ضمن الكتلة الإسلامية العربية.

الهوامش:

[1] ينظر **أسبوعية البصائر**: "العلامة عبد الرحمن الجيلالي سيرة ومسيرة"، قسم: رجال صدقوا، العدد: 09، 522- 15 ذو الحجة 1431هـ/ 15-21 نوفمبر 2010م، ص 17.

[2] ينظر كلمة الشيخ عبد الرحمن شيبان؛ رئيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أنداك، يوم تكريم العلاّمة عبد الرحمن الجيلالي بمؤسسة الشروق، منشورة تحت عنوان: "عبد الرحمن الجيلالي، بطاقة تعريف موجزة"، **أسبوعية البصائر**، العدد:14،409-20 رمضان1429هـ/15-21سبتمبر2008م، ص:02.

[3] أسبوعية البصائر: **العلاّمة عبد الرحمن الجيلالي سيرة ومسيرة**، قسم: رجال صدقوا، العدد:09،522-15ذو الحجة1431هـ/15-21نوفمبر2010م، ص17.

[4]ينظر شهادة الدكتور عمّار طالبي، **جريدة الجزائر نيوز**، السبت:13 تشرين الثاني(نوفمبر)2010م، في قسم: قالوا عن العلاّمة. جمعها: عبد اللطيف بلقايم، ص24.

[5]يُنظر شهادة الشيخ محمد إيدير شوشان، **جريدة الخبر**، السبت،7 ذي الحجة1431هـ ،13 تشرين الثاني(نوفمبر)، قسم قالوا عن الشيخ عبد الرحمن الجيلالي، ص:17، جمعتها: هيبة داودي.

[6]عبد الرحمن الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام**، منشورات دار مكتبة الحياة ببيروت بالاشتراك مع مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، ط:1384،02هـ،1965م، ج:01، ص:7-8.

[7]د. مولود عويمر، "العلاّمة عبد الرحمن الجيلالي: ذاكرة الأمة"، ينظر: **أسبوعية البصائر**، الجزائرية، العدد:16،523-22 ذو الحجة1431هـ/22-28نوفمبر2010م، ص:17.

[8]عبد الملك مرتاض، **نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر،1925-1954م**، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983م، ص: 238،221.

[9]نفسه، ص240.

[10]ينظر، **جريدة الشروق اليومي الجزائرية**، "الشيخ العلاّمة عبد الرحمن الجيلالي مائة عام في خدمة القرآن والجزائر"، العدد:11،2403 رمضان1429هـ/11سبتمبر2008م، ص:8.

[11]**جريدة الجزائر نيوز**، السبت:13 تشرين الثاني(نوفمبر)2010م، ص:24.

[12]**جريدة الجزائر نيوز**، السبت:13 تشرين الثاني(نوفمبر)2010م، ص:24.

[13]مولود عويمر، **المرجع السابق**، ص19.

[14]عبد الرحمن الجيلالي، "تلمسان والقدس الشريف"، **مجلة الأصالة**، السنة الرابعة، العدد:26، رجب-شعبان1395هـ، جويلية-أوت1975م، ص:104-105.

[15]مولود عويمر، **المرجع السابق**، ص21.

[16]مولود عويمر، **المرجع السابق**، ص25.

[17]شهادة الدكتور عمّار طالبي، **جريدة الجزائر نيوز**، السبت:13 تشرين الثاني(نوفمبر)2010م، في قسم: "قالوا عن العلاّمة". جمعها: عبد اللطيف بلقايم، ص:24.

[18]عبد الملك مرتاض، **نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر،1925-1954م**، منشورات الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1983م، ص: 238،221.

[18]نفسه، ص242.

[19]عبد المالك مرتاض، **المرجع السابق**، ص245.

[20]نفسه، ص251.

[21]عبد المالك مرتاض، **المرجع السابق**، ص252.

[22]نفسه، ص255.

[23]عبد الرحمن الجيلالي، "تلمسان والقدس الشريف"، **مجلة الأصالة**، السنة الرابعة، العدد:26، رجب-شعبان1395هـ، جويلية-أوت1975م، ص:104-105.

[24]عبد الرحمان الجيلالي، **المرجع السابق**، ص110.

[25]عبد الرحمن الجيلالي: "من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلاّمة النابغة الشيخ مبارك الميلي (رحمه الله)"، **مجلة الثقافة**، السنة الرابعة عشرة، العدد:80، جمادى الثانية، رجب1404هـ، مارس-أبريل1984م، ص:189 وما بعدها.